أوغسطينوس في «مدينة اللّه» والفطرة والقانون الطبيعي

عامر الحافي ■

يُعدُّ القديس أوغسطينوس أحد أهم اللاهوتيين المسيحيين الذين تعدّت أفكارهم القرون الوسطى وأثّرت في مختلف مراحل التاريخ الفكري المسيحي في الشرق والغرب قبل التنوير وبعده، وقد امتاز أوغسطين ـ بالاضافة إلى تجربته الدينية الفريدة التي تقلب فيها من المانوية إلى المسيحية ـ بأنّه استوعب كثيراً من قضايا الفلسفية اليونانية وكتابات المفكرين الرومان. وليس من المفاجئ القول بأن كتاباتنا الإسلامية ما تزال مشغولة بالكتابات الجدلية والردود والرغبة في الإفحام وإقامة الحجة أكثر من رغبتها باستيعاب الأفكار الدينية المقابلة في مهادها الطبيعي ولذلك بَقِيتْ حتى يومنا غير مستوعبة لبعض أهم مفاصل الفكر اللاهوتي المسيحي، ناهيك عن غيره من الأديان والأفكار الكبرى في تاريخنا الإنساني.

ويأتي موضوع الفطرة والقانون الطبيعي في هذه الدراسة ليظهر مدى عمق الإحساس بالقانون الطبيعي في جوانبه المختلفة، على مستوى الإنسان والمجتمع والطبيعة، والذي يتصل بالعناية

■ أستاذ الأديان المشارك، جامعة آل البيت، نائب مدير المعهد الملكي للدراسات الدينية.

الإلهية ودورها في حركة الوجود... لقد مثلت هزيمة روما وخرابها في عصر أوغسطين صدمة عامة في أنحاء الإمبراطورية، وكان اتهام الرومان الوثنيين للديانة المسيحية بأنها وراء تلك الهزيمة السبب الرئيس الذي جعل أوغسطين يبحث وراء الأحداث ليستخرج أسبابها وعللها المتصلة بالواقع، ويربطها بالعقيدة والفكر والأخلاق.

إن البحث وراء الظواهر والأحداث بغية العثور على القوانين والسُنن التي يتحرك فيها ومن خلالها الإنسان يمثل تحولاً في التفكير الديني، ويتجلى ذلك التحول من التعامل العفوي والقدري إلى نوع من الفهم والمعرفة المنظمة والمتسقة للنفس والمجتمع والطبيعة، وسوف يلاحظ القارئ المسلم مدى التشابه والالتقاء بين مقولات القديس أوغسطين في موضوع الفطرة والقانون الطبيعي والنظرة الإسلامية.

الله والقانون الطبيعي

الله هو خالق الطبيعة ومبدعها ونحن «نعبد هذا الإله الذي يرسم إلى الطبائع أصولها، هو خالقها ومبدءها وغاية حركتها ومداها في الزمن»[1].

والأسباب الطبيعية هي سُنن عناية الله التي لا تنفصل عن الله خالق الطبيعة وسيدها، «فلسنا نفصلها عن ارادة الله خالق الطبيعة وسيدها»[2]

فالعناية الإلهية هي التي توجه الأسباب بكافة أشكالها، «العناية التي تأمر العلل الأولى والثانوية»[3].

وفي الوقت الذي يرفض فيه أوغسطين معتقدات الرومان عن كسوف الشمس لأنه ضد نواميس الطبيعة فإنه يؤكد حدوث الكسوف يوم الفصح[4].

1 ـ ج 1، ص 354.
2 ـ ج 1، ص234.
3 ـ ج 1، ص 355.
4 ـ انظر: ج 1، ص 134.

ويرفض أوغسطين القول بأن الكون جزء من الله لأن هذا لا يليق بالله[1]. وربما يشير رفض أوغسطين لهذه العقيدة إلى نوع من الفصل بين الطبيعة المخلوقة وطبيعة الإله الخالق، الأمر الذي يؤثر في فهم القوانين الطبيعية وأحداث التاريخ.

كما يمكن فهم رفض أوغسطين لعقيدة وحدة الوجود بأنه ينطوي على رفضه لعبادة الطبيعة من دون عبادة الخالق الذي يقوم بتدبير شؤونها[2].

يرفض أوغسطين القول بأن الكون جزء من الله لأن هذا لا يليق بالله، وربما يشير رفض أوغسطين لهذه العقيدة إلى نوع من الفصل بين الطبيعة المخلوقة وطبيعة الإله الخالق، الأمر الذي يؤثر في فهم القوانين الطبيعية وأحداث التاريخ

فالله هو مبدأ كل ما في الطبيعة؛ لكنه ليس الطبيعة ذاتها «إنه مبدأ كل إيلاد طبيعي، أياً كان نوعه وثمنه... خلق الجسد بما هو عليه... هو الذي وهب النفس غير العاقلة الذاكرة والحس والقابلية، ووهب العاقلة العقل والحرية... فهل يعقل أن يكون ترك ممالك البشر ورؤساءهم وخدمهم خارجاً عن سنن عنايته»[3].

الآلهة والقانون الطبيعي

يذهب القديس أوغسطين إلى أن الأصنام الهالكة لا يمكن لها أن تضمن للمدن ديمومة فوق الأرض ولا تستطيع أن تمنع الخراب[4].

ويشير أوغسطين إلى اعتقاد الرومان بتدخل الإلهة في الدفاع عن روما يوم وصل إليها هنيبعل، وأنهم روعوه بالعواصف والرعد ليتراجع عنها؛ لكنه ينتقد هذا الاعتقاد من خلال ما حدث من خراب لروما في زمانه وعدم تدخل الإلهة في منع ما جرى[5].

1 ـ انظر: ج 1، ص 185.
2 ـ ج 1، ص 207.
3 ـ ج 1، ص 239.
4 ـ انظر: ج 1، ص 146.
5 ـ انظر: ج 1، ص 149.

ليست الآلهة هي السبب في بقاء الدول وعظمتها وأنصارها، فالمهزومون أيضا لهم آلهة، فلماذا لا يتدخلون لمساعدتهم؟؟[1]

ولكن أوغسطينوس ـ وبالرغم من نقده لتدخل الآلهة عند الرومان ـ يبقى يؤمن بتدخل الإله الحق في مجرى الأحداث والتاريخ: «ما من إنسان يملك إلا بمساعدة إلهية»[2].

يذهب أوغسطين إلى أن تكريم الآلهة لا يمنع من وقوع البؤس والهزيمة[3].

وانتقد آلهة الرومان، لأنهم لا يستطيعون منع التمزق والخراب[4]، ويرى أن هؤلاء الآلهة لم يكونوا سبباً في عظمة روما؛ لأنهم أضعف من أن يفعلوا ذلك[5]، وهو في الوقت ذاته يستغرب من اتهام الوثنيين المسيح بأنه سبب الكوارث التي تحل بروما، ويصفه بالوقاحة والجنون[6].

القدر والقوانين الطبيعية

يرفض أوغسطين مفهوم القدر السائد في الإمبراطورية الرومانية، والذي يصفه بأنه «ما تجريه الكواكب من تأثير في الإنسان حال ولادته أو الحبل به... بمعزل عن إرادة الله»[7].

فالله الذي يؤمن به أوغسطين يعلم «بكل شيء قبل حدوثه، ومدبر كل شيء، وهو الذي يهب الإنسان قواه جميعها»[8].

ولا يعترف أوغسطين بالصدفة: «لا شيء يحدث إلَّا بفعل علة سابقة لأن

1 ـ انظر: ج 1، ص 175.
2 ـ ج 1، ص 173.
3 ـ ج 1، ص 33.
4 ـ انظر: ج 1، ص 155.
5 ـ انظر: ج 1، ص 165.
6 ـ انظر: ج 1، ص 161.
7 ـ ج 1، ص 219.
8 ـ ج 1، ص 230.

ما يقال عنه: انه وليد الصدف لا ننكر حدوثه، بل نقول: إن أسبابه خفية وننسبها إلى إرادة الله الحق»[1].

فالعلل الإرادية هي العلل الفعالة لكل ما يحدث في الطبيعة: «ليس من علل فعالة لكل ما يحدث سوى العلل الإرادية المنبثقة من هذه الطبيعة التي هي روح الحياة»[2].

ويفرق أوغسطين بين العلل المطلقة والعلل الطبيعية بقوله: «العلة المطلقة التي تعمل كل شيء وليست مخلوقة هي الله»[3]، أما العلل الطبيعية فيقول عنها:

«العلل الطبيعية المصنوعة وغير الصانعة لا تصنف بين العلل الفاعلة»[4].

يؤمن أوغسطينوس ـ وبالرغم من نقده لتدخل الآلهة عند الرومان ـ بتدخل الإله الحق في مجرى الأحداث والتاريخ: «ما من إنسان يملك إلا بمساعدة إلهية»

وفي سياق حديثه عن العلل يؤكد أوغسطين على حرية الإرادة الإنسانية، ويرفض أن تكون الضرورة هي التي تحدد للإنسان اختياراته: «لا نخضع اختيارنا الحر إلى الضرورة التي تقضي على حريتنا»[5].

وحدة القانون الطبيعي

يؤكد أوغسطين أن الناس جميعاً أمام قانون طبيعي واحد أوجده الله، عندما يضرب فساد الناس في ضربات زمنية فإن الأبرار يصابون معهم[6]. والموت والقتل تنطبق على الجميع مسيحيين وغير مسيحيين: «كم من المسيحيين قتلوا وذهبوا فريسة موت لا يرحم»[7].

1 ـ ج 1، ص 234.
2 ـ ج 1، ص 235.
3 ـ ج 1، ص 235.
4 ـ ج 1، ص 235.
5 ـ ج 1، ص 237.
6 ـ انظر: ج 1، ص 22.
7 ـ ج 1، ص 26

والناس محكومون بهذا القانون الطبيعي الــذي أوجده اللّه على الأرض مــن دون ان يعاقب على الخطيئة في هذا العالم؛ لأنه لو فعل ذلك لما بقي شيء حتى الدينونة الأخيرة[1].

ويذهب أوغســطين إلى أن التشابه بين الناس في تحمل مصائب الحياة لا يعني التشابه في المصير، «وقد شاءت العناية الإلهية أن تُعدُّ للأبرار في المستقبل خيرات لن يتمتع بها الأشــرار، ولهؤلاء ويلات لن يذوقها الأبرار. أما فيما يختص بالخيرات والويلات الزمنية فتريدها مشتركة بين الفئتين»[2].

وهذا التشابه بالبلايا بين الأبرار والأشرار لا يعني تطابقاً بين الفضيلة والرذيلــة[3]، والأذى الذي يصيب الأبرار يتحول إلــى خير لهم: «إنّا نعلم أن كل شيء يؤول لخير من يحبون اللّه «(روما: 8: 28)[4].

العقل والقوانين الطبيعة

يمكن للعقــل عند القديس أوغســطين أن يكتشــف بعض أســرار الطبيعة وقوانينها بعيداً عن الدين كما هو الحال مع اليونان التي «أصبحت مقاطعة في الإمبراطورية الرومانية، فهي لا تنشر التعاليم التي للآلهة بل اختراعات البشر الذين ـ بفضل عبقريتهم ونبوغهم الحاد ـ بدأوا يكتشفون ـ بعقلانية ـ ما تخفي الطبيعة مــن أســرار، وما يجب الســعي اليــه او الهــروب منه في الســلوك الحياتي،... واكتشف بعضهم حقائق عظيمة لكون اللّه قد أمدّهم بعونه»[5].

الفطرة

خلق اللّه الإنسان وهيأه لأن يكون ســيد الأرض، وليفرض سلطته عليها: «لنصنع الإنســان على **صورتنا كمثالنا**، وليتســلط على سمك البحر، وطير السماء، والبهائم، وجميع الأرض «التكوين (26: 1).

1 ـ انظر: ج 1، ص 19.
2 ـ ج 1، ص 18.
3 ـ انظر: ج 1، ص 19.
4 ـ ج 1، ص 23.
5 ـ ج 1، ص 70.

وهذا التكوين الفطري والإعداد الإلهي يمكّن الإنسان من استعمال ما في الأرض في سبيل تحقيق السلام في مدينة الأرض[1].

«في كل إنسان نظام عادل وطبيعي، به تخضع النفس لله، والجسد للنفس، وانطلاقاً منه تخضع النفس والجسد لله»[2].

ويتصل هذا النظام ـ الذي كونه الله في الإنسان ـ بمجمله من السمات الخاصة، ومنها العقل والذكاء الذي فضل الله به الإنسان على الحيوانات: «العقل والذكاء يرفعنا(البشر)فوق جميع الحيوانات»[3].

والرغبات والشهوات هي أمر فطري في الإنسان لا يمكن التخلص منها على وجه الإطلاق «وإمكانية استئصالها كلياً في هذه الحياة من الإنسان أمر مستحيل، وهي لا تزال تجرب النفوس في مسيرتها إلى الصلاح»[4].

لكن الله أعطى الإنسان القدرة على أن يتجاوز الرغبات والشهوات الجسدية: «لو كنا حيوانات عجماء لكنا نتوق فقط إلى ما يتجاوب مع الأعضاء في الجسد ومع راحة شهواتنا»[5].

هذا التشابه في البلايا بين الأبرار والأشرار لا يعني تطابقاً بين الفضيلة والرذيلة، والأذى الذي يصيب الأبرار يتحول إلى خير لهم: «إنّا نعلم أن كل شيء يؤول لخير من يحبون الله».

والإنسان أناني، ويعادي الموت بالطبع: «صوت الطبيعة الأول والأقوى أن ينحاز الإنسان إلى جانب مصالحه الخاصة، وأن يحتفظ بعداء طبيعي مع الموت»[6].

كما يعتقد أوغسطين أن الجهل هو جزء من الطبيعة البشرية[7].

1 ـ ج 3، ص 139.
2 ـ ج 3، ص 116.
3 ـ ج 1، ص 389.
4 ـ ج 1، ص 247.
5 ـ ج 3، ص 139.
6 ـ ج 3، ص 118.
7 ـ ج 3، ص 126.

والإنسان يتوق إلى السلام بالفطرة: «وما من إنسان إلا ويريد السلام»[1]، وحتى عندما يشن حروبه فإنه يبقى يسعى للسلام[2]،»والسلام تؤمنه أيضا الشريعة التي ترعى النظام الطبيعي»[3].

ومن مقتضيات الفطرة التي أوجد الله الإنسان عليها السير في الطريق المستقيم: «الطيب القلب لا يتخذ سوى الطريق المستقيم؛ أي طريق الفضيلة، وبواسطتها يسعى إلى تحقيق مبتغاه من سلطان ومجد وكرامة، وإنه شعور فطر عليه»[4].

وتشمل طبيعة الإنسان على ضمير؛ إلا أن هذا الضمير يحتاج إلى تعليم يرشده ويوجهه، «فيما يخصنا يبقى السمع الدليل الوحيد لتوجيه الضمير»[5].

التعليم السماوي الذي أوحي به إلى الأمم يسمو بالقلب البشري إلى السماء[6].

وعن علاقة الضمير والدين يشير أوغسطين إلى الضمير والدين، ويجعلهما يسيران في اتجاه واحد[7].

ويشير كذلك إلى أقوال بعض مفكري الرومان أمثال سلستس؛ «لأن العدل والشرف كانا يحكمان بواسطة الضمير كما يحكم القانون»[8].

الفطنة هي فضيلة يميّز الإنسان من خلالها بين الخير والشر، وهي تشهد أن الشر في الإنسان[9].

1 ـ ج 3، ص 131.
2 ـ ج 3، ص 131.
3 ـ ج 3، ص 137.
4 ـ ج 1، ص 242.
5 ـ ج 1، 47.
6 ـ ج 1، ص 54.
7 ـ ج 1، ص 269.
8 ـ ج 1، ص 82+83.
9 ـ ج 3، ص 116.

والنفس الإنسانية تدين بالشكر لمن يرشدها إلى الحقيقة: «ومن ذا لا يشكر الناس على الحقيقة ويعلمهم عبادة الإله الواحد الحق»[1].

ومن أبرز سمات الفطرة الإنسانية البحث عن السعادة: «ومن ذا الذي لا يريد ان يكون سعيداً؟ وحدها السعادة يبتغيها الإنسان، وهي وحدها يطلبها من الآلهة»[2].

وتتأثر طبيعة الإنسان بالعفة والاستقامة: «الاستقامة والعفة تملكان القدرة على ان تجعل الطبيعة الإنسانية تتأثر بالثناء، وإن تكن رازحة تحت الرذيلة»[3].

إنّ الإنسان يتوق إلى السلام بالفطرة: «وما من إنسان إلا ويريد السلام»، وحتى عندما يشن حروبه فإنه يبقى يسعى للسلام»والسلام تؤمنه أيضا الشريعة التي ترعى النظام الطبيعي»

يرى أن فضيلة النفوس تناقض الرضا بالآلهة غير الحقيقية[4]، والقلب العفيف يرفض عبادة الآلهة التي تشيع الآثام[5].

المبدأ الطبيعي للفضيلة يكون أكثر نقاءً وكمالاً بالتقوى الحقيقية، والكفر يبدد ذلك المبدأ ويضيعه[6].

يعرِّف أوغسطين الفضيلة بأنها هي «كل ما يجب على الإنسان ان يعمله، والسعادة كل ما يشتهيه»[7].

ومن فضائل النفس التي يذكرها أوغسطين فضيلة الطهارة والتي تتعلق بالنفس الإنسانية[8].

1- ج1، ص196.
2- ج1، ص111.
3- ج1، ص103.
4- انظر: ج1، ص106.
5- انظر: ج1، ص105.
6- انظر: ج1، ص108.
7- ج1، ص193.
8- ج1، ص35.

ويرى أوغسطين أن كرامة الإنسان هي بمثابة مبدأ أساسي لتقرير صحة أو بطلان العقائد الدينية ؛ فالله لا يرضى عن تكريم آلهة تسيء إلى كرامة الإنسان[1].

وأما مسؤولية الإنسان فهي عن إرادته من حيث ما تقبله أو ترفضه، وليس على ما يجري لجسده من أحداث[2].

وعن علاقة الشر بالطبيعة الإنسانية فهو يرى أن الإنسان لا يفقد حرية الاختيار إلا إذا مكّن الإنسان الشر من نفسه «إن كان الشر متملكاً فينا حتى افقدنا حرية الاختيار بين البراءة والجرم وفرض علينا الإثم»[3].

وعن حاجة الناس الفطرية إلى الدين يرى أنها حاجة ضرورية تنبع من صميم الفطرة الإنسانية، وليست مجرد مصلحة ظرفية، كما يزعم ڤرون (Varron)، الذي يرى أن «مصلحة الدول تقتضي بأن يعتقد عظماؤها، وإنْ باطلاً، بأنهم من ذرية الآلهة، لكون الإنسان الذي يعتقد بأنه من أصل إلهي يندفع بحماسة كلية إلى الأعمال الكبرى»[4].

ويرى أوغسطين أن فرون يفتح الباب واسعاً للخطأ؛ لأنه يرى أن «الكذب في أمور الدين مفيد للمواطن»[5].

طبيعة الإنسان والخطيئة

الأصل في طبيعة الإنسان الحرية والبر؛ لأن «النظام الذي وضع الله الإنسان فيه عندما خلقه ما جعله عبداً لإنسان آخر أو للخطيئة، لكن عقاب العبودية وضعته الشريعة التي ترعى النظام الطبيعي وتحرم مخالفته»[6].

1 ـ انظر: ج 1، ص 109.
2 ـ ج 1، ص 35.
3 ـ ج 1، ص 46.
4 ـ ج 1، ص 116.
5 ـ ج 1، ص 116.
6 ـ ج 3، ص 142.

وبالرغم من حدوث تعديل على نظام الطبيعة بعد الخطيئة فإن الإنسان يبقى قادراً على الرجوع إلى قوانين تلك الطبيعة الاولى عندما يتخلص من غرائزه الفاسدة، «ويتم ذلك من خلال الخلود، والذي يغيّر قابليتها للفساد في ذاك السلام النهائي الذي هو موضوع برنا على هذه الارض وغايتنا المنشودة»[1].

جلبت الخطيئة الموت والفساد إلى العالم خلافاً لما كان عليه قبل الخطيئة: «الموت لم يكن من طبيعة جسم الإنسان لأن «جسم الإنسان خلق في ظروف مختلفة قبل الخطيئة؛ أي أنه كان قادراً على ألا يموت، ومنذ أخطأ أصبحت الطبيعة غير قادرة على أن تحيا إلى الأبد»[2]، فالحالة التي كان يعيشها الإنسان في الفردوس كانت بعيدة عن حتمية الموت... وكما أنه ليس مستحيلاً على الله أن يخلق ما أراد من الطبائع فهكذا لا يستحيل عليه أن يغيرها.... ويستدل أوغسطين على تغير القانون الطبيعي من خلال الأحداث العجائبية المدعوة أقزاماً وغرائب[3].

الأصل في طبيعة الإنسان الحرية والبر؛ لأن «النظام الذي وضع الله الإنسان فيه عندما خلقه ما جعله عبداً لإنسان آخر أو للخطيئة، لكن عقاب العبودية وضعته الشريعة التي ترعى النظام الطبيعي وتحرم مخالفته»

ويشير أوغسطين إلى علاقة بين تغير طبيعة الإنسان والخطيئة لا يتنافى مع العدل الإلهي: «إننا ندرك أن العبودية فرضت على الخاطئ بعدل»[4].

الإنسان والنزوات الجسدية

ترتكز الشهوة الكامنة في الإنسان إلى قوانين خاصة بها، «وإذا تحركت

1 ـ ج 3، ص 165.
2 ـ ج 3، ص 274.
3 ـ ج 3، ص 277.
4 ـ ج 3، ص 141.

تلك الشهوة الجامحة الكامنة في أعضاء الموت فينا ـ تلقائياً ـ مستندة إلى سنتها الخاصة ضد سنة الروح، فالإرادة حتماً ترفضها»[1].

ولا تقتصر الشهوات على غير المؤمنين؛ بل إن المؤمنين أنفسهم معرضون لتلك النزوات: «ما من مؤمن ـ وان خَلَتْ حياته من اللوم وأية شائبة ـ إلّا ويستسلم أحياناً لنزواته اللحمية»[2].

«شهوة التسلط بين كل شهوات الجنس البشري والتي تسكر بها النفس الرومانية»[3].

وللإنسان شهوة للسلطة «هي أشرس ما في الشهوات التي تتلف قلوب الناس»[4].

اللّه والقوانين الاجتماعية

لم يترك اللّه المجتمعات الإنسانية من دون قوانين تنظم حياة الناس، وتضبط أخلاقهم فاللّه يضبط بيده ممالك الأرض كلها، وقدّم مساعدته للإمبراطورية[5]

ولا يقتصر عمل اللّه على خلق الطبيعة؛ بل يتجاوز ذلك إلى تدخله في حركة الشعوب غير المؤمنة: «أمد اللّه الأحدُ ـ إله البر والحق ـ الرومان بعون منه، فرفعوا بناء عظمتهم الفضيل على أخلاقية المدينة الأرضية»[6].

واللّه يبقى حاضراً في حياة الإنسان بعنايته وشرائعه الأخلاقية خلافاً لآلهة الرومان التي تركت خدامها دون قوانين في ظلام[7]، وهم لا يبالون

1 ـ ج 1، ص 46.
2 ـ ج 1، ص 20.
3 ـ ج 1، ص 53.
4 ـ ج 3، ص 142.
5 ـ ج 1، ص 58.
6 ـ ج 1، ص 260.
7 ـ انظر: ج 1، ص 66.

بتنظيم حياة الشعوب سكان المدن وضبط أخلاقهم حتى لا تصيبهم الويلات[1].

«الله الواحد الحق يرتب الأمور ويدبرها كما يشاء، فهل هي غير عادلة أسباب سلوكه ذاك لكونها خفية؟»[2].

ويذهب أوغسطين إلى أن الله الإله الحق الضابط بيديه ممالك الأرض تنازل وشجع نمو المملكة الرومانية، وأفاض خيراته على الأبرار والأشرار خلال الحرب الطاحنة[3].

«أراد الله أن يقيم مملكة الغرب الأخيرة الأَشهر بعظمتها وقدرتها، ولكي يعاقب جريمة شعوب عديدة»[4].

لا يقتصر عمل الله على خلق الطبيعة؛ بل يتجاوز ذلك إلى تدخله في حركة الشعوب غير المؤمنة: «أمد الله الأحدُ ـ إله البر والحق ـ الرومان بعون منه، فرفعوا بناء عظمتهم الفضيل على أخلاقية المدينة الأرضية»

قانون الصراع

ما تعيشه الإمبراطورية الرومانية من حروب وصراعات جعل أوغسطين يهتم بالأسباب التي أدت إلى تلك الصراعات وعلاقتها بالإلهة، والأسباب الإنسانية والأخلاقية، ومن أبرز ملامح أفكاره حول الصراع اعتقاده أن الصراع بين البشر ينضوي تحت تقدير الله: «العناية الإلهية التي تتخذ الحرب سلاحاً للاصلاح وسحقاً للفساد البشري، وإذ تختبر بتلك الضيقات النفوس البارة والصدّيقة تؤهلها ـ بعد الامتحان ـ إلى مصير أفضل»[5].

والله يتدخل في الصراع، فهو «الحكم في الحرب، يحدّد لها بداية

1 ـ انظر: ج 1، ص 69.
2 ـ ج 1، ص 263.
3 ـ انظر: ج 1، ص 169.
4 ـ ج 1، ص 246.
5 ـ ج 1، ص 10.

واســتمرارية وغاية عندما يرى أنه من الضروري أن يصحح مســار الجنس البشري أو يؤدبه»[1].

ولا يقبل القديس أوغسطين بالحرب على إطلاقها؛ بل نجده يذهب إلى أن الحرب ليســت مقصودة لذاتها، وإنما هي اختبــار للأبرار، وتهدف إلى تحقيق الإصلاح وإزالة الفساد.

والصراع بين الناس يحدث عندما تطغى مشاهد الظلم والعنف، ويبتعد العقل والعدالة بين الناس، وتسيطر شهوة التغلب عليهم[2].

كما يرفض أوغســطين الأمور التي تهدف إلى التسلط والظلم: «تَقَاتُل الأمم وتَسلُّط الواحدة على الأخرى والتوسع على حساب الآخر بنظر الأشرار سعادة، أما في نظر الصالحين فهو حاجة أليمة، ويزداد الألم عندما يصبح الظالمون أسياداً على المظلومين»[3].

أسباب الازدهار والسقوط

يشير القديس أوغسطين إلى عدة أسباب للازدهار والانحدار؛ فالازدهار قد ينتج الجشــع والدعارة[4] وغيرها من أشكال الفساد الأخلاقي الذي يؤدي إلى انحلال الــدول وهزيمتها[5]، ويؤكد أن الخراب الأخلاقي أشــد هولاً من سيف العدو[6].

الفساد الديني أدى إلى الفســاد الأخلاقي، والفساد السياسي أدّى إلى استسلام الشعب إلى نزواته، ولم يعد يطالب الدولة بإقامة العدل وصيانة حقوق الإنسان[7].

1 ـ ج 1، ص 355.
2 ـ ج 1، ص 84.
3 ـ ج 1، ص 187.
4 ـ انظر ج 1، ص 54.
5 ـ ج 1، ص 56
6 ـ ج 1، ص 53.
7 ـ ج 1، ص 61.

سبب خراب روما يعود إلى الآلهة التي من خلال طقوسها اللاأخلاقية أفسدت المجتمع وأدت إلى الكوارث[1].

ومن أسباب السقوط والهزيمة غياب العدالة التي تجعل المجتمع زمراً من اللصوص: «كل مملكة تخلو من العدالة ولا تقيم لها وزناً تصبح مجموعة من زمر اللصوص»[2].

ويؤيد أوغسطين، مقولة (سلستس) بأن سقوط العدو والانتصار عليه قد يؤديان إلى نوع من الازدهار يقوم على الجشع والطمع، وهذا ما حدث بعد خراب قرطاجة عدو روما[3]: «تدهورت فيه روما عن مركز الفضيلة والجمال إلى قعر الرذيلة والفساد بعد خراب قرطاجة»[4].

يشير أوغسطين إلى عدة أسباب للازدهار والانحدار؛ فالازدهار قد ينتج الجشع والدعارة وغيرها من أشكال الفساد الأخلاقي الذي يؤدي إلى انحلال الدول وهزيمتها، ويؤكد أن الخراب الأخلاقي أشد هولاً من سيف العدو.

ويرى أوغسطين أن الازدهار الذي حصلت عليه روما بعد خراب قرطاجة ما لبث أن أدّى إلى حروب داخلية وفوضى واضطرابات وطغيان الترف والبخل[5]. ويقول أيضاً: «الازدهار أفسدكم، والضيق عجز عن إصلاحكم»[6].

وبالرغم من هذا التفسير الاجتماعي والنفسي للانحطاط بقي أوغسطين يعلّق المسؤولية الكبرى على آلهة الرومان؛ لأنهم «يبثون خبثهم الجهنمي في عقول الناس وأفكارهم ضلالاً يلد مجموعات من الجرائم البشعة والشائنة»[7].

1 ـ ج 1، ص 61.
2 ـ ج 1، ص 165.
3 ـ ج 1، ص 85.
4 ـ ج 1، ص 87.
5 ـ ج 1، ص 87.
6 ـ ج 1، ص 56.
7 ـ ج 1، ص 87.

وأنهم (الآلهة) سكتوا «عن إعطاء قوانين في الحياء والوداعة، وفرضوا على الشعب إباحيات مخجلة»[1].

ويرفض أوغسطين اتهام المسيحية بأنها وراء الكوارث ويرد التهمة إلى الآلهة التي يعبدها الرومان[2].

ويرى أوغسطين أنه كان على الآلهة الأوصياء على الجمهورية أن يقدموا للشعب تعاليم ومؤسسات أخلاقية تحفظه من الخراب[3]، وبدلاً من ذلك ساعدوا في خرابها[4].

ومن أسباب الهزيمة الفساد الناتج عن الشعور بالنصر: «أخذت روما تغرق في الفساد نتيجة النصر والأمان، وهو الذي رزحت تحت شروره»[5].

وكذلك انفلات الحرية التي تحولت إلى شغب وفساد، فهذه الحرية كانت «وباء وشغباً وانحطاطاً وفساداً»[6].

أسباب تقدم الدول

هناك أسباب يشير إليها أوغسطين أرادها الله ضمن عنايته لتقدم الدول وازدهارها يشير إليها بقوله: «ليست عظمة المملكة من الصدف ولا عامل الحتمية؛ أي من دون سبب، وخارجاً عن نظام العقل؛ لأن الحتمي هو ما يحدث بمعزل عن إرادة الله وإرادة البشر نتيجة نظام ضروري، وفي الواقع فإن العناية الإلهية تنشئ ممالك الأرض»[7].

1 ـ ج 1، ص 88.
2 ـ ج 1، ص 66.
3 ـ انظر: ج 1، ص 95.
4 ـ انظر: ج 1، ص 98.
5 ـ ج 1، ص 152.
6 ـ ج 1، ص 152.
7 ـ ج 1، ص 219.

ويرفض أوغسطين أن يعزى تقدم الإمبراطورية واستمراريتها إلى قدر مجهول، وإنما هي إرادة الله[1].

ولا يقتصر التقدم والازدهار على الدولة المؤمنة، بل يتعدى ذلك إلى الدول التي لا تقوم على أساس عقيدة صحيحة، فإنها يمكن أن تتقدم إذا أخذت بأسباب معينة، فهو يذهب إلى أن الشعوب التي ليس لديها الإيمان والتقوى ومحبة الجمال العقلي الذي يدعوهم إلى السيطرة على الشهوات، فإن حب المجد العالمي يجعل منهم أناساً في مستوى بشري لائق[2].

يشير أوغسطين إلى أسباب أرادها الله ضمن عنايته لتقدم الدول وازدهارها بقوله: «ليست عظمة المملكة من الصدف ولا عامل الحتمية؛ أي من دون سبب، وخارجاً عن نظام العقل».

فالمدينة الأرضية عند أوغسطين ليست مجردة من الفضائل، وهؤلاء الناس الذين لا يرتبطون بالمدينة الأبدية ـ التي يسميها الكتاب المقدس مدينة الله.

ومن أسباب الازدهار عند القديس أوغسطين العدل: «من العدل أن يكافأ الإنسان على أعماله الصالحة ويعاقب على خطاياه»[3].

الالتزام بالوصايا الآلهية التي جاء بها الأنبياء والإنجيل وأعمال الرسل حول العدل والاستقامة توصل إلى الدولة، إلى السعادة في الحياة الحاضرة وفي الحياة الأبدية[4].

ونجده يعرّف العدالة بمعناها السلوكي الأخلاقي بأنها «تعطي كل ذي حق حقه»[5]، وهو بذلك يعطي لها مجالاً عاماً سواء تعلّق الأمر بحقوق الخالق أم المخلوق.

1 ـ ج 1، ص 240.
2 ـ ج 1، ص 246.
3 ـ ج 1، ص 238.
4 ـ انظر: ج 1، ص 88.
5 ـ ج 3، ص 116.

ويشير أوغسطين إلى فطرية العدل بما يسميه (الشعور الطبيعي إلى العدل)[1]، ويرى أن العدل لا يقوم بين الناس على كونهم متساوين من حيث الإنسانية: «أليس الناس بأجمعهم متساوين بالإنسانية؟»[2].

وينتقد أوغسطينوس مفهوم العدل الذي يشير إليه المفكرون الرومان، والذي يطلق عليه تسمية «العدالة الطبيعية»، ويبرر نقده ذاك بوجود أساطير منافية للعدالة في معتقدات الرومان.[3]

والعدالة الحقيقية عند أوغسطين لن تكون إلّا في مدينة اللّه التي أسسها المسيح: «العدالة الحقيقية قائمة فقط في هذه المدينة التي أسسها وملك عليها المسيح»[4].

1 ـ ج 1، ص 83.
2 ـ ج 1، ص 252.
3 ـ ج 1، ص 82+83.
4 ـ ج 1، ص 94.